كتاب نفيس

آراء وأحاديث
فى التربية والتعليم
لأستاذ ساطع الحصرى
بقلم الأستاذ محمد عبد الغنى حسن

مؤلف هذا الكتاب ليس غريباً عن أسرة « الرسالة » ، ولا غريباً عن رجال التفكير والثقافة فى الشرق العربى عامة ، أو فى مصر خاصة ، وهو نفسه لا يعدُّ نفسه غريباً على مصر إذا عالج مسألة من مسائل الفكر أو تناول قضية من قضايا التعليم فيها . فإن نظراته العائبة فى التربية والتعليم لا تضيق فى حدود وطن واحد ، ولا تتضاءل فى مساحة بقعة واحدة ؛ ولكنها تمتد إلى ما وراء التخوم السياسية فتتسع لسورية والعراق ومصر وغيرها من البلاد العربية

وبهذا الاعتبار يمكن أن يفسر اهتمامه البليغ بأمور التربية والتعليم فى مصر ، ويدفع هو عن نفسه ما قد يرمى به من الكلام فى أمور لا تتصل بوطنه ؛ فيقول فى عزة عربية نسجلها له مع الفخر : (وأرجو أن لا يعتبرنى أحد متطفلاً على مصر بهذه الملاحظات ؛ فإنى عربى صميم ، أدين بدين العروبة بكل جوانحى ، وأهتم بمصر بقدر ما أهتم بسورية والعراق) . وهذا دفاع بليغ يقطع الطريق على أمثال من يقولون :

إنما نسكر من أموالنا فعلوا الشرطى ما هذا الغضب!

لأن غضبة الأستاذ الجليل ساطع الحصرى ليست غضبة « الشرطى » ولكنها غضبة المُضرى التى يجب أن يحسب لها حساب ...

ولهذا لا نظن أحداً من الناس فى مصر أو فى غير مصر يضيق صدره بآراء ساطع الحصرى فى التربية والتعليم ، لأنه مخلص فى إبدائها ، ولأنه عربى قبل أن يكون مصرياً ، والعروبة تقتضيه حقوقاً كثيرة ، وخاصة فى هذه الأوقات التى نسمع فيها كثيراً عن الوحدة والاتحاد والتعاون واليقظة العربية والوعى القومى . ولأنه هو نفسه قد أبان فى كتابه نوازع اهتمامه بمصر (لأنها أصبحت القدوة المؤثرة على العالم العربى بأجمعه)

لا نظن أن أحداً من المفكرين والمثقفين والمربين فى مصر يغضب لأن مفكراً عراقياً وسورياً نشر كتاباً نفيساً فى التربية وفيه مقالات حول نظام التعليم فى مصر . لأننا نرى الخبراء يستقدمون إلى بلادنا ، وتغدق عليهم الأموال ، وتفتح لهم الأبواب ولكن ساطع الحصرى زار مدارس مصر - قادماً لا مستقدماً - فى سنتى ١٩٣٢ ، ١٩٣٦ ، وكشفت له الزيارتان عن أمور رأى من الإخلاص للوطن العربى الأول أن لا يكتمها ، ورأى من الخير أن ينشرها

ونحن نرى أن بعض « الزوار » قد ينشرون كلاماً له خبىء أو يذيعون آراء لها خواف . ولكن الأستاذ ساطع واضح المقصد بيّن الغاية حسن النية . ونرجو أن تكون تلك حاله التى ينطق بها لسان المقال

ليس هذا الكتاب كتاباً « فنياً » فى أصول التدريس وطرق التعليم ، وليس كتاباً « مدرسياً » فى « الدرس » وأجزائه « والمقدمة » وشروطها . « وملخص السبورة » « ووسائل الإيضاح » وما إليها من الموضوعات الجافة التى يحفظها (المعلم الجديد) ويضحك منها المعلم المتمرس أو يبتسم لها . ولو كان كتاباً كذلك ما استحق أن نطيل الوقوف عنده ، وأن نعرضه على القراء عرضاً يحملهم على الاطلاع عليه والظفر به ، لأن فيه نظرات فى التربية والتعليم جمعها المؤلف من هنا ومن هناك . ولا شك أن هذه النظرات وليدة تجارب بلاها المؤلف بنفسه ، وهداه إليها اطلاع وسيع ، وبحث عميق ، ومتابعة لكل جديد من الرأى فى آفاق التربية والتعليم

والقسم الأول من الكتاب فيه مشاهدات وملاحظات فى فى التربية والتعليم . وهذا القسم يجمع إلى صحة الفكرة التربيبية طرافة الأسلوب وحسن العرض ، والخلوص من المثال أو المشاهدة

إلى القاعدة التي يقررها . ولعلك تحس وأنت تقرؤه الجفاف الذي يصادفه من يقرأ كتب التربية البحت ، و« الطفل المعاكس » « وإثبات الذات » « والتربية بالثقة » « والحرية » وغيرها نصيب في هذا القسم من الكتاب

أما القسم الثاني فهو محاضرات ومقالات في التربية والتعليم ألقى بعضها في نادي التضامن وبعضها في نادي المعلمين ببغداد . ويمتاز هذا القسم من سابقه بالدراسة الفنية وعرض النظريات التربيية عَرْض المربي الفنّي لا عَرْض المشاهد المتنقل كما في القسم الأول

وفي هـذا القسم فصل ممتع عن التربية الاجتماعية . وقد نجح المؤلف في محاولة ردّ تربيتنا الاجتماعية أو بالأجدر مشاكلنا الاجتماعية في الشرق العربي إلى تغلب الأثرة Egoisme على الإيثار Altruisme . وإلى أننا لم نتعود التفكير في غيرنا تفكيراً اجتماعياً ، كما أننا لم نتعود العمـل مع غيرنا عملاً مشتركاً Collectif

وهذا كله كلام جميل ، وفيه كثير من الحق وكثير من الصدق ، فإن ذلك كله ينقصنا . ولكن ينقصنا شيء آخر لم يشر إليه الأستاذ ساطع ؛ ولكن أوضحه البروفسور كامبانياك الأستاذ بجامعة ليفربول في كتابه النفيس :

Education in Its Relation to the Common Purposes of Humanity.

المطبوع في إنجلترا سنة ١٩٢٥

يقول هذا الأستاذ الإنجليزي في كتابه ص ٣٣ (إذا شاء المواطن أن يتمتع بميزات ، فواجب عليه أن يقبل تلك المزايا بشروط . فما هي الشروط التي يمكن أن يتمتع بها الرجل بمزايا الجماعة ؟ إنهـا شروط يمكن التعبير عنها في سهولة ويسر في جملة واحدة : يجب أن يتعلم الرجل أن يفعل ما يُطلب منه ، يجب أن يطيع قواعد الجماعة إذا أراد أن يحتفظ بعضويته فيها)

وهذا التوضيح يفسر لنا كثيراً ممـا يحدث في مجتمعاتنا ومجامعنا الشرقية . فكثيرون منا لا يفعلون ما تطلبه قواعد الجماعة ومواضعاتها منهم ؛ كالذين أشار إليهم الأستاذ ساطع في مقصورات أحد المسارح ببغداد حين علا صوتهم وضوضاؤهم ؛ فلما نبههم إلى خطئهم أجابه أحدهم : إننا أحرار ، لا حق لأحد أن يتدخل في أمرنا ...

لقد ردّ الأستاذ الحصري هذا السلوك الشائن إلى أننا لم نتعود العمل مع غيرنا عملاً « مشتركاً » وذلك صحيح . وصحيح كذلك أن نرده إلى طبيعة العصيان والتمرد على قواعد الجماعة كما فسّره الأستاذ كامبانياك

أما الفصل الذي كتبه الأستاذ الحصري عن « تيارات التربية والتعليم » فهو فصل معنيٌّ به مسهور عليه . وهو يشهد باطلاع المؤلف على اتجاهات التربية الحديثة ومراميها ، والعوامل التي أثرت فيها ؛ والمراحل التي مرت بها . وهنا تظهر طريقة المؤلف في حسن العرض العلمي عرضاً متسلسلاً يدل على الفكر المتسق ... ولقد أشار في خلال هـذا الفصل إلى وجوب تقوية علاقة الطلاب « بالطبيعة » التي طغت عليها حياة « المدن » . إلا أننا نأخذ على الأستاذ ساطع إيجاز الإشارة إلى هذا الموضوع الهام ، وكان المقام يتطلب منه إطالة واهتماماً أكثر . وللبروفسور كامبانياك في كتابه المشار إليه سابقاً فصل رائع « عنوانه العودة إلى الطبيعة »

كما أن الأستاذ « نيومان » عالج هذا الموضوع معالجة علمية في كتابه القيم « فكرة الجامعة » : Idea of a University ص ١٣٣ ، ١٤٣

ومن عبارات كامبانياك الرائعة في ذلك الفصل قوله في صفحة ٩٥ (يمكننا أن نلجأ إلى عالم الطبيعة مرات ومرات ، لأنعاشنا وتطهيرنا وتقويتنا) وقوله : (أن مشروعاً تربيياً يوجه عقولنا وحواسنا إلى قوى الطبيعة ومختلف مجاليها ، لهو مشروع حكيم الخطة)

أما الفصل الذى عنوانه « تعليم التاريخ » قلنا عليه استدراك ، فالأستاذ ساطع يحتم أن نعيد النظر فى تاريخنا العربى بنزعة تربيوية قومية ، وينادى بأن دروس التاريخ يجب أن ترمى إلى « التربية القومية » قبل كل شىء . وتلك دعوة طيبة تقابل من الأستاذ الحصرى بالقبول الحسن من كل البلاد العربية التى تنشد الوحدة فى عالم اتحدت فيه أمم مختلفة النزعات واللغات ، فكيف بأمم وحدت بينها اللغة والجنس والعادات ؟ إلا أن الهدف من تعليم التاريخ ليس تنمية القومية (قبل كل شىء) . فمن الفن أن نغمط الأهداف الأخرى ونبخسها قدرها . فقد ينفعنا تعليم التاريخ على وجه صحيح فى إدراك صورة واضحة لمعنى « الخير » للجماعة وأعضائها ؛ وقد ينفعنا تعليم التاريخ العربى على وجه صحيح فى إيقاظنا من سبات عميق طال عليه الأمد ... وقد ينفعنا تعليم التاريخ العربى على وجه صحيح فى تجريد الدين من كل ما علق به من أوشاب القرون وغبار السنين ...

وقد ينفعنا التاريخ فى العمل على تحسين حالتنا الصحية التى أصبحت مرضاً عضالاً وداء قتالاً . فلو اعتنى فى مدارسنا بتدريس تاريخ الأوبئة والحميات والأمراض ، ولو اعتنى بدراسة تاريخ ما اتخذ من وسائل لمقاومة المرض وتحسين الصحة وإنشاء البلديات وكشف الجرائيم ، لاجتمع لأبنائنا ثقافة صحية تقوم إلى تربيتهم القومية

وقد كان ذلك من أغراض تعليم التاريخ فى إنجلترا بناء على الرسالة التى نشرتها الحكومة البريطانية سنة ١٩٣٤ بعنوان : (مطبعة الحكومة الإنجليزية لندن — ص ٦٤)

أما الفصل الممتع الذى كتبه الأستاذ ساطع حول تعليم اللاتينية واليونانية فهو يستحق عليه التهنئة . فقد عرض القضية عرضاً لا يدع فيها مقالاً لقائل . وهو هنا يتكلم دائماً والدليل بين يديه والحجة بيمينه ؛ فيحملك على الاقتناع بكلامه وقد أثار فى نفسى شهوة إلى قراءة « التحقيق البرلمانى الفرنسى » الذى يذكره أستاذنا وصديقنا توحيد السلحدار بك

بقى أن فى الكتاب نسباً يستعملها الأستاذ ساطع (كالفردانية) (والأنوية) نسبة إلى أنا . (والقبمدرسية) نسبة إلى « قبل مدرسى » وهى طريفة فى هذا الكتاب وأطرف منها المصادر التى يستعملها . وهى صحيحة ولكنها لا تستعمل عندنا فى مصر « كالتمديد » « والترفيع » « والاقتياس » بدلاً من المد والترقية والقياس التى نستعملها هنا

* * *

وبعد فإن كتاب الأديب المربى الأستاذ ساطع الحصرى يعد محاولة ناجحة فى عرض الاتجاهات التربيية عرضاً يرتاح إليه الأديب ، قبل أن يرتاح إليه المربى . وهو من هذه الناحية كان خليقاً بأن يقرأه الأدباء والمفكرون والمثقفون قبل أن يقرأه المربون والمعلمون

وكفاه قيمة أنه ـ فيما نعلم ـ أول كتاب عربى غير مصرى يتناول مسائل التربية والتعليم فى مصر بصراحة وإخلاص يستحقان الشكر والإعجاب .

محمد عبد الغنى حسن

اللغة والدين والتقاليد

هى الرسالة التى أجازتها لجنة المباراة الأدبية الرسمية المؤلفة من أصحاب المعالى والسعادة أحمد لطفى السيد باشا وجعفر ولى باشا ويحيى الدين بركات باشا ومنطق عبد الرازق باشا والدكتور طه حسين بك

وهذه الرسالة تشرح بالتفصيل ما يجب أن نراعيه فى الحياة الدينية والأدبية والاجتماعية

تطلب من المكاتب المشهورة ، وثمن النسخة عشرة قروش